حكايات بعد العشاء

Jerome Klapka Jerome

جيروم كلابكا جيروم

الكتاب: حكايات بعد العشاء
المؤلف: جيروم كلابكا جيروم
ترجمة: سماح ممدوح

رقم الإيداع: ٣٧٥١٢ / ٢٠٢٢
الترقيم الدولي: 978-977-493-970-9
الطبعة: الأولى / ٢٠٢٢

الناشر
شمس للنشر والإعلام
ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net
shams@shams-group.net



حكايات بعد العشاء

قصص

Jerome Klapka Jerome

جيروم كلابكا جيروم

ترجمة

سماح ممدوح

«حكايات بعد العشاء»...

مجموعة قصص قصيرة نُشِرَت عام ١٨٩١، للكاتب الإنجليزي «جيروم كلابكا جيروم» (١٨٥٩-١٩٢٧)، تُقدِّم مُحاكاة ساخرة لقصص الأشباح في العهد الفكتوري، خاصةً تلك التي كتبها مؤلفون مثل «تشارلز ديكنز»، فالإطار السردي للمجموعة يعكس مُحاكاة مستمدة من مجموعة كتبها ديكنز عن الخوارق.

هذه المجموعة التي بين أيدينا، مكونة من ثمانِ قصص، عبارة عن حكايات عن الأشباح تُروى بعد العَشاء على لسان مجموعة من الأصدقاء الذين اجتمعوا للاحتفال بعيد الميلاد. ورغم أن القصص يحكيها أشخاص مختلفون، إلَّا أن راويها هو شخصٌ واحد.

يمكن القول إن الهدف الأساسي والتركيز الأهم للقصص هو الهجاء، من خلال تصميم الراوي الساخر على الالتزام العام بقصص الأشباح المرتبطة بشدة بتعاليم عقيدته الأرثوذكسية؛ في مجال السلوك الاجتماعي.

وفي هذا يُشبه الـراوي تمامًا شخصية «السيد بوتر»؛ الشخصية المحورية فـي كـتـاب «مـذكـرات لا أحـد» لـ«جروسميث»، ويتجلى هذا التشابه في محاولة التوافُق بين ما يراه من الأشكال التقليدية للسلوكيات؛ ونقد هذه السلوكيات بحس الدعابة. وهذا من أهم سمات الكتابة عند جيروم.

مقدمة :

حفلتنا للأشباح

إنها عشية عيد الميلاد.

أبدأ بهذه الطريقة لأنها الطريقة الأرثوذكسية الصحيحة والمحترمة للبدء. فلقد ترَّبيتُ وتعلَّمتُ أن أُنجز كل الأمور بالطريقة الأرثوذكسية الصحيحة والمحترمة، ولا تزال تلك العادات ملتصقةً بي.

بالتأكيد، وللعلم فقط؛ لم يكن ضروريًا على الإطلاق ذِكر التاريخ، فالقارئ المُتمرِّس سيعرف دون أن أُخبره بذلك، فطالما هناك قِصص أشباح؛ إذًا فهي عشية عيد الميلاد.

إنها عشية عيد الأشباح، وليلة احتفالهم السنوي، فالجميع يحكون قِصص الأشباح في ليلة عيد الميلاد، فحريّ بالمرء أن يُفكِّر في أن الأشباح يخرجون ويتجولون في ليلة العيد ليعرضوا - هُم أو هنَّ - أكفانَهم البيضاء المدفونين بها، وكمثل الأحياء؛ ينتقدون ملابس بعضهم البعض، ويسخرون من بشرة بعضهم الشاحبة.

أُخمِّن أنهم يُسمون ذلك «موكب عيد الميلاد»، وبالنسبة لهم أظن أنها وظيفة مهمة يستعدون لها بكل شغف

ويتطلعون إليها في كل أنحاء أرض الأشباح، خاصةً أشباح هـؤلاء المولعين بالتباهي، مثل البارونات المقتولات، والكونتيسات الملطخات بجرائم القتل، والإيرالات اللواتي جِئنَّ مع الفاتح المنتصر وأُغتيل أقاربهن ومِتنَّ وهُن تهذين بجنون.

يمكن للأحياء أن يجزموا أن الأشباح في تلك الليلة يُطلقون الأنَّات الجوفاء والابتسامات الشيطانية. أيضًا، يمكن أن يكون هؤلاء تدربوا لأسابيع مضت على الصرخات التي تُجمِّد الدماء في العروق، والإيماءات التي تُجمِّد النخاع... سلاسلَ صدِئة، وخناجرهم الدموية المشحوذة في حالة استعداد للعمل... أغطية وأكفان حُفِظتْ بعناية من عرض العام الماضي؛ تم إنزالها ونفضها وإصلاحها، ثم نُثِرتْ في الهواء.

إنها ليلة أشباح مثيرة، ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر. من الممكن ألَّا تظهر الأشباح في ليلة الكريسماس نفسها، فنحن نُضفي إثارةً أكبر على ليلة الميلاد، وربما هي ليست كذلك بالنسبة لهم، فهم لم يعتادوا تلك الإثارة.

أشعر أن بعد هذه الليلة، ولمدة أسبوع تقريبًا؛ تتخذ أشباح السادة – بلا شك – قرارًا حازمًا بالتوقُف عن الظهور بدءًا من عيد الميلاد القادم. بينما أشعرُ أن شبح السيدة النزِقة سريعة الغضب قد ينفجر في نوبة بكاء من دون سبب واضح، ويفرُّ هاربًا من الغرفة عند البدء بالتحدث إليه.

والأشباح أنواع...

منها أشباح الطبقة المتوسطة، وهؤلاء يُصابون بالأرق في معظم الليالي، وفي كل الأعياد، ومنتصف ليل الصيف، وبعض الليالي في الأحداث المحلية: مثل ذكرى شنق أحد الأجداد، أو عند التنبؤ بحدوث المصائب.

الأشباح تحب التنبؤ بالحظ العاثر – ومعظم الأشباح البريطانية تفعل ذلك – لذا فهي تخرج في منتهى السعادة لتُنذر شخصًا ما بالمشاكل. دع الأشباح تدخل بيتًا مسالمًا؛ وسوف تقلِبه رأسًا على عَقب بعدما تُنذر بجنازة، أو إفلاس، أو بعدما تفضح وصمة عارٍ قادمة، أو أيَّة كارثة رهيبة لا يرغب أحد في معرفة حدوثها مسبقًا، خاصةً وإن كانت تلك المعرفة لن تساعد ولن تفيد، مهما كان الغرض منها.

لكن الأشباح تشعر أنها بذلك الإنذار ستجمع بين الواجب والمُتعة، فأي شبحٍ لن يغفر لنفسه أبدًا إن وقعت مشكلة لأحدٍ من عائلته ولم يكن هو موجودًا قبلها بشهرين على الأقل ليُنذره من خلال بعض الحِيل السخيفة على العُشب أو محاولة الوقوف متوازنًا على حاجز السرير.

أيضًا هناك الأشباح صِغار السِّن، والذين يرون وجوب القيام بعملهم على أكمل وجه. ودائمًا هناك رقم خفي عنهم يُثقل كواهِلهم. وهؤلاء الأشباح يُطارِدون الأحياء على مدار العام.

وهناك ذلك الشبح القلِق سريع الغضب، ذلك الساخط لأن جُثته دُفِنتْ في أحد مكبات النفايات، أو أُلقيت في بركة القرية. وهذا الشبح لن يهدأ روعه إلَّا إذا تكفَّل شخصٌ ما بدفع تكاليف جنازةٍ له من الدرجة الأولى.

كل هذه الأنواع من الأشباح عادية...

إنما شبح عيد الميلاد الأرثوذكسي دوره مقصور فقط على ليلة الميلاد؛ من بين كل ليالي العام، وأنا صراحةً لا أفهم السبب. لذلك فليلة عيد الميلاد من أكثر الليالي كآبةً، وأكثرها برودةً ورطوبةً، وكل شخص حتى لو كان شبحًا؛

يخرج منها بليلة مُوحِلة. بالإضافة إلى أن الجميع ليلة العيد لديهم ما يكفيهم من العلاقات مع الأحياء، فهم ليسوا بحاجة إلى أشباح الموتى تجولُ في بيوتهم.

أثق في أن أجواء عيد الميلاد تحمل دائمًا شيئًا ما شبحيًا، فالطقسُ الرطبُ هذا يجذبُ الأشباحَ مثلما تجذبُ رطوبة وأمطار الصيف الضفادع والقواقع.

ولا يقتصر الأمر فقط على تواجد وتجُول الأشباح بأنفسهم في هذه الليلة، بل أن الأحياء أيضًا لا يكفُّون عن استحضارهم بالتحدُث عنهم طوال ليالي الكريسماس، فما إن يجتمع خمسة أو ستة أشخاص حول مدفأة ليلة عيد الميلاد حتى يبدأوا ليلة طويلة من الحكي عن الأشباح، فلا شيء يُسعد الأحياء في هذه الليلة أكثر من سرد قصة أشباح حقيقية. إنه موسم احتفالي لطيف، تُلهمنا فيه القبور والموتى والدم والجُثث وجرائم القتل.

وهناك تشابه كبير بين تجارينا مع الأشباح، لكن هذا ليس خطأنا، إنما خطأهم، فهم لم يحاولوا التجديد في الأداء، دائمًا ما يواظبون على القديم التقليدي الآمن، والنتيجة تصبح كالآتي:

عندما تكون في حفلة عيد الميلاد وتسمع ستة أشخاص يربطون مغامراتهم بـالأرواح؛ حينها لن ترغب في سماع المزيد، لأنه سيكون بمثابة مشاهدة فيلم كوميدي مرتين، أو شراء مجلة هزلية من نفس العدد، فالتكرار سيصبح مملًا.

فدائمًا يوجد ذلك الشاب الذي قضى ليلة عيد الميلاد في المنزل الريفي لعائلته، وبات ليلته في الجناح الغربي للبيت، وفي منتصف الليل؛ يُفتح باب الغرفة بهدوء، ويدخل شخصٌ ما؛ تكون امرأة في الغالب، وترتدي قميص النوم، وتأتي لتجلس على طرف السرير. ويظن الشاب أنها إحدى أقارب عائلته، على الرغم من أنه لم يرها من قبل، لكنه سيعتقد أنها مصابة بالأرق وشعرت بالوحدة وهي بمفردها، فجاءت إلى غرفته للدردشة. لن يخطر بباله إطلاقًا أنها شبح، ولن يرتاب فيها، على الرغم من أنها لن تتحدث... وعندما سينظر إليها مرة أخرى؛ ستكون قد اختفت!

في صباح اليوم التالي أثناء تناول الإفطار؛ يسأل السيدات ما إن كانت إحداهن أتت إلى غرفته ليلًا، وسيؤكد الجميع على أن هذا لم يحدث. وسيُصدم المضيف ويشحب

عندما يسمع ذلك، وسينتحي بالشاب جانبًا ويتوسل إليه ألَّا يتحدث عما رأى، وبالتأكيد سيُصدم الشاب من غرابة الطلب. وبعدها سيشرح له أن ما رآه هو شبح أحدهم؛ مات أو قُتل في هذا السرير.

ربما يكون أمر الشبح معروفًا، لكن لإخافة الناس أكثر؛ لابد وأن يكون لشخص مقتول، فالشبح المقتول سيظهر جروحه وأنَّاته.

ثم هناك ذلك الضيف المُتشكِّك، والذي يُسمح له بالتدخل في جلسات هذه الحكايات، أو يظن أن الأشباح لن تظهر لأحدٍ من عائلته أبدًا، ويرد هذا الضيف المتشكك على كل حكايات مضيفه، بعد سماع كل قصص الأشباح في ليلة عيد الميلاد؛ بضحكٍ وسُخرية.

وبعد أن يُعلن عدم إيمانه بمثل تلك الأشياء على الإطلاق؛ يقرِّر النوم في الغرفة المسكونة إذا سمحوا له، حتى لو في كل الليالي. وبالتأكيد سيحثه الجميع ألَّا يتهور، لكنه يُصرّ على طيشه، وسيصعد للغرفة الصفراء (أو أيًّا كان لون الغرفة المسكونة) بقلبٍ مُضاءٍ وشمعةٍ في يده، ويتمنى للجميع ليلةً طيبةً، ويُغلق الباب.

في صباح اليوم التالي سيشيب شعره ويبيَّض كالثلج، ولن يُخبر أحدًا أبدًا عما رآه من أمورٍ مرعبة.

يوجد أيضًا الضيف الشُجاع الذي يرى الأشباح – ويعرف أنها أشباح – تدخل الغرفة وتختفي بين ألواح الخشب، وبعدها يرجع لنومه بعدما يُقرِّر أن الشبح خرج ولن يعود مرةً أخرى.

هذا الضيف لن يحكي للآخرين عما رآه حتى لا يخيفهم. ورغم قلقه؛ يقرِّر أن ينتظر لليلةٍ قادمة ويرى إذا ما كان الشبح سيظهر ثانيةً.

وبالفعل، عندما يراه ثانيةً؛ سيخرج من سريره ويرتدي ثيابه ويصلح شعره، ثم يتبعه، ليكتشف حينها ذلك الممر السري الذي سلكه الشبح والمؤدي إلى قبوٍ للبيرة يبدأ من الغرفة، ويدرك من قِدم الممر وعدم انتظامه؛ مدى قِدم عمر الممر الذي صُنع منذ سنواتٍ طويلة خَلَت.

أيضًا هناك ذلك الشاب الذي يستيقظ في منتصف الليل بإحساسٍ غريبٍ بأن عمه يقف عند حافة سريره ينظر إليه بابتسامةٍ غريبة، ثم يختفي. ويستفيق الشاب على الفور

لينظر في ساعته التي توقفت عقاربها عند الرابعة والنصف بعدما نَسيَ لفها.

في اليوم التالي عندما يسأل عما رأى وعن عمه الغني الذي هو ابن أخيه الوحيد، يعرف أن ذلك العم تزوج منذ يومين من أرملة لديها أحد عشر طفلًا.

هناك حالة أخرى عن ذلك الرجل الذي كان في طريق العودة إلى بيته في وقت متأخر من الليل، آتيًا من عشائه مع مجموعةٍ من الماسونيين، ولاحظ ضوءًا قادمًا من الكنيسة الخرِبة المهجورة، زحف بهدوء ونظر من ثقب المفتاح فرأى شبحًا للأخت الرمادية تُقبِّل راهبًا بُنيًّا. صُدِم مما رأى وسقط مغشيًا عليه حتى الصباح التالي. وعندما استفاق، ظل صامتًا ومُمسكًا بقبضته بإحكام مفتاح قفل الباب.

حدث كل ذلك في ليالي عيد الميلاد...

كل تلك القصص رُويت في ليالي العيد... في المجتمع الإنجليزي؛ من المستحيل أن تسمع قصص الأشباح تُرْوَى بذلك الانتظام والثبات في أية ليلةٍ أخرى كما تُروى في ليلة الرابع والعشرين من ديسمبر.

لذلك، وبعد مقدمة قصص الأشباح الحزينة والأصلية هذه، كُنْ متأكدًا أنه من غير الضروري أن نذكر لدارسي الأدب الإنجليزي والتاريخ أن تلك القصص تُـروى في عشيات عيد الميلاد، لأن ذلك بديهي لديهم.

ومع ذلك أنا سأفعل، وسأذكر دائمًا بأنها...

عشية عيد الميلاد.

كيف بدأت الحكايات؟

إنها عشية عيد الميلاد... في حفلة العيد المُقامة في منزل عمي «جون». والذي يقع في ٤٧ لبورن هام، جروف.

(في هذا الكتاب سوف نذكر كثيرًا أنها عشية عيد الميلاد. أعرف أن الجُملة أصبحت مُملة؛ حتى بالنسبة لي، لكن ما باليد حيلة).

نبدأ حفلتنا في تلك الإضاءة الخافتة بفعل مصباح الغاز، نجتمع في صالة الاستقبال؛ حيث نار المدفأة تُلقي بظلالٍ غريبةٍ على الألوان الزاهية لورق الحائط، بينما العاصفة تزأر في الشارع المُقفر في الخارج، وتعوي الرياح كما لو كانت روحًا مضطربةً تئن، ويجول نحيبها عبر الميدان وصولًا لمحل الألبان.

تناولنا عشاءً لذيذًا، ثم جلسنا نتحدث ونُدخِّن السجائر.

في الواقع كان أشهى عشاء تناولناه منذ تلك المرة التي وقعت فيها مشاجرة في العائلة بخصوص هذه الحفلة؛ أو هكذا كانت الشائعات؛ وعن تلك البغضاء التي سرت منذ ذلك الحين، بالنسبة لي؛ حقيقةً لم تُفاجئني حصتي

من هذه الكراهية، وذلك لمعرفتي القوية بماهية عائلتنا، وطِباعهم وكيف يُفكِّرون. لكن ما يؤلمني حقًا هو كيف سأرى العمة «ماري» مرةً أخرى بعد الحفلة، أنا مؤمن أنها تعرفني أفضل من الآخرين.

لكن، وعلى الرغم من وقوع ظلم جسيم، سأشرحه لاحقًا، إلَّا أن هذا لن يمنعني من إنصاف الآخرين، حتى هؤلاء الذين يرمونني بتلميحات معدومة الشعور. أيضًا سوف أُنصف فطائر اللحم البقري الساخنة من صنع العمة ماري، وسأنصف سرطان البحر المشوي، وسأمدح الـ«التشيز كيك» الدافئة، فأنا لا أحس بنكهتها باردة.

ابتلعتُ كل هذا ببيرة العم جون الخاصة، وبالتالي لابد وأن أعترف أن العشاء كان لذيذًا، ولن يسع العمة ماري بعد مدحي لعشائها إلَّا الاعتراف بأني شخصٌ منصف.

بعد العشاء سكب العم جون كؤوس «الويسكي» الذي صنعه خصيصًا، وسيحبُ مدحي لعمله هذا.

حان موعد نوم العمة ماري. فدخلتْ إلى غرفتها، تركتنا جميعًا برفقة العم جون.

كنتُ أنـا، ودكـتـور سكروبل العجوز، والسيد صومويل كومبوس عضو بلدتنا في مجلس المدينة، والسيد تدي بيفيلز.

كان الوقت لا يزال مبكرًا، فسكب العم جون المزيد من كؤوس الشراب الخاص، والذي أحبه الجميع. قبل أن نتبعه بمشروب «الجين» على سبيل التغيير. ورغم أني اكتفيتُ مما شربت سابقًا؛ إلَّا أني لم أمانع في المزيد.

كان الجميع في منتهى السعادة واللُطف.

خلال الأمسية حكى العم جون حكاية طريفة؛ نسيتُها الآن، لكني أذكر أني تسليت وضحكت كما لم أضحك في حياتي أبدًا بهذا القدر، وهذا هو الغريب، وأيضًا من الغريب نسياني القصة، رغم أنه أعاد حكيها أربع مرات، وأخطأنا إذ لم نسمح له بحكيها للمرة الخامسة. ثم غنَّى لنا أغنية جميلة، قلَّد فيها أصوات حيوانات المزرعة، وخلط بينها، فأدَّى صوت صياح الديك على أنه خِوار خنزير. لحُسن الحظ كنا نعرف الأصوات الصحيحة رغم الخلط بينها.

وعندما بدأتُ أنا في سرد قصة تشد الانتباه؛ لاحظت أن لا

أحد يُعيرني أي اهتمام!

في البدء فكَّرتُ كم هم أفظاظ بسلوكهم هذا، لكن بعد قليل تبيَّنتُ أني مَنْ كنتُ أُحدِّث نفسي فحسب؛ وطوال الوقت، بدلًا من أن أحكي لهم بصوتٍ عالٍ. كنتُ أتحدَّث لنفسي فلم يعرف أحد على الإطلاق أني كنت أحكي قصة.

ربما في مرحلة من الحكي تحيّروا في أمري، بعدما لاحظوا إيماءات ورأوا تلويحات يدي دون أن يفهموا معانيها. وهذه من أكثر الأخطاء فضولًا التي يمكن أن يقع فيها إنسان، ولا أدري إن كان قد حدث لي هذا من قبل.

علَّمنا دكتور سكروبل خدعة أوراق اللعب، وسألنا ما إن كنا نعرف لعبة تُسمى «خدعة الثلاث ورقات». قال إنه تعلمها من رجل محتال معدوم الضمير ممن يترددون على ميادين السباقات؛ أحد هؤلاء المحتالين الذين يجعلون الشبان الأغبياء يخسرون أموالهم. يقول المحتال إن هذه خدعة بسيطة، تعتمد كُليًا على سرعة اليدين، وبالتأكيد سرعة اليدين تخدع العين.

بدأ يعلِّمنا الخدعة عمليًّا...

ناوله العم جون أوراقَ اللعب، فأخرج منها ثلاث ورقات: ورقتين بنقوشٍ عـاديـة، وورقــةً بصورة واحــدة (صــورة الملكة)، وجلس أمام المدفأة وشرح لنا ما سيفعل قائلاً:

– سنأخذ هذه الأوراق الثلاث، وبعد أن أعرضها عليكم وترونها جيدًا؛ سأضعها مقلوبة، وأطلب منكم استخراج ورقـة الصورة من بينها، وستظنون أنكم تعرفون الوقة الصحيحة.

بالفعل قام السيد كومبوس باختيار الورقة في الوسط، وأصرَّ أنها الصورة. سأله دكتورسكوربل:

ـأتتخيل أنك رأيتها؟

– أتخيل؟! أنا لا أتخيل. أنا متأكد من أنها الورقةَ في الوسط، وسأدفع نصف دولار رهانًا عليها.

ـ ها هو ذا. هذا ما كنت أُحدِّثكم عنه، بهذه الطريقة كان المحتال يسلب الحمقى أموالهم. فهم متأكدون أنهم يعرفون الورقة الصحيحة، تخيلوا أنهم رأوها. لكن سرعة اليد خدعت العين.

... قالها دكتور سكروبل، ثم بدأ يحكي كيف رأى رجالًا

يخرجون لسباق القوارب أو مباراة كروكيت ببضعة جنيهات في جيوبهم، ويعودون لمنازلهم مُفْلِسين بعدما خسروا أموالهم في هذه اللعبة المُحبِطة.

بعدها قرر أن يأخذ الرهان (النصف دولار) من السيد كومبوس؛ رغم صحة تخمينه، بزعم أنه علَّمه درسًا مفيدًا محتملًا أن ينقذ أمواله في المستقبل.

- لا تقلق على أموالي في المستقبل.

... ردَّ السيد كومبوس، ووضع النصف دولار على الورقة في الوسط، وكان متأكدًا من أنها الورقة الصحيحة، ثم أدارها ليرى، وإذ هي بالفعل الصورة الصحيحة (صورة الملكة).

تفاجأ الجميع، خاصة السيد سكروبل، وقال إن هذا يحدث أحيانًا، فهذا المحتال أحيانًا يضع الورقة الصحيحة في الوسط عن طريق الصدفة.

ثم أكمل قائلًا:

- ومع ذلك؛ أسوأ ما يفعله الشخص بنفسه هو أن يكتشف الورقة الصحيحة، لأنه بذلك يتذوق طعم الفوز، وعندما يحدث هذا؛ يتحمس للمخاطرة مرة أخرى، حتى يأتي

الوقت ويترك اللعبة وهو شخص مُحَطم ومُدَمر.

أعاد دكتور سكروبل الخدعة مرةً أخرى، وراهن السيد كومبوس أيضًا بخمسة شلنات.

وبعدما سخرنا منه ونصحناه بعدم اللعب؛ أصرَّ وأكمل اللعبة.

وللمرة الثانية يدير الورقةَ التي راهن عليها، وتكون هي الصحيحة (صورة الملكة)، ويكسب الرهان!

بعدها راهن العم جون؛ وكسب الرهان. اتبعه الباقون، والجميع فاز في اللعبة، ما عدا دكتور سكروبل مشرف اللعبة ومن علَّمنا إياها؛ هو الوحيد الذي خسر، وفي كل المرات التي لعب فيها... لم أعرف رجلًا بهذا الحظ السيئ مثل هذا الرجل.

أنهينا اللعب وسكب العمُ جون المزيد من كؤوس الويسكي، أُهْدِرَ بعضها وعوَّضنا الكمية المُهدَرة.

قضينا أمسية رائعة. لكنني لا أعرف متى بدأنا بالحكي عن الأشباح تحديدًا!

كل ما أذكره في اليوم التالي، أننا حكينا عن الأشباح.

حكاية «تيدي بيفلز»

حكى «تيدي بيفلز» القصة الأولى.

سوف أسردها كما حكاها بالضبط، بنفس كلماته، (ولا تسألني كيف أتذكر القصة بالكلمات عينها، أو ما إن كنتُ قد كتبتُها حينها، أو إن كان هو من سلَّمها لي مكتوبة لأنشرها في هذا الكتاب، فهذا شيء لا يُقال لأنه سر المهنة)...

المهم أن قصته جاءت كالتالي:

جونسون وإميلي
أو
الشبح المُخْلِص

تيدي يحكي:

كنتُ لا أزال في عمر المراهقة عندما قابلتُ السيد «جونسون» لأول مرة، كنا في منزلنا القديم نقضي عطلة عيد الميلاد.

وبما أنها ليلة العيد؛ سُمِحَ لي بالسهر حتى وقت متأخر من الليل. وعندما صعدتُ إلى غرفتي، وبينما أنا أفتح بابها؛ فإذا بي وجهًا لوجه مع السيد جونسون، والذي كان في طريقه لمغادرة الغُرفة، حتى أنه مرَّ من خلالي، قبل أن يختفي من نافذة السلّم!

تجمَّدتُ مكاني لوهلة. حينها لم أكن إلَّا فتى في المدرسة، وفي حياتي لم يسبق وأن رأيت شبحًا أبدًا.

عجزتُ عن النوم ليلتها، لكن عندما تذكرت أن فقط الأرواح الشريرة للمجرمين هي من تُؤذي الأحياء؛ اطمئننتُ ودخلتُ سريري.

في الصباح، حكيتُ لأبي عما رأيت، فقال:

- نعم، إنه شبح السيد جونسون العجوز، لا تخفْ، إنه يعيش هنا معنا.

ثم قصَّ لي التاريخ المأساوي لصاحب الشبح:

- (عندما كان السيد جونسون في عُمر الشباب؛ أحبَّ ابنة المزارع الذي كان يستأجر البيت قبلنا، كانت جميلة للغاية، وكان اسمها المسيحي «إميلي»؛ ولم أعرف اسمها الآخر.

لكن جونسون الشاب كان أفقر من أن يتزوجها، لذا قبَّلها قُبلةَ الوداع، ووعدها بالعودة القريبة، ثم سافر إلى أستراليا، ليصنع مستقبله ويُكوِّن ثروة.

للأسف، في ذلك الزمان، لم تكن أستراليا كما هي الآن، فحينذاك، كان على المسافرين عبور الأدغال المتباعدة. وبالتأكيد كان أغلبهم يموتون نتيجةً لذلك، حتى عندما كان يُعْثَرُ على جُثثهم، كان كل ما يحملون من أمتعةٍ بالكاد يغطي نفقات جنازة بسيطة.

وعلى هذا، استغرق تكوين السيد جونسون لثروته عشرين عامًا، لكن في النهاية، أنجز المهمة، وتملص من الشرطة، وغادر المستعمرة.

عاد إلى إنجلترا مُفعمًا بالأمل والفرح للزواج من فتاته، لكن عندما وصل إلى بيتها؛ لم يجد إلَّا الصمت.

أخبره الجيران، أن بعد رحيله بوقتٍ قصير، وفي ليلة ضبابية؛ اختفت أسرة إميلي، لم يرهم أحد ولم يُسمع عنهم أي شيء أبدًا من حينها. وعلى الرغم من أن مالك منزلهم وبعض تُجار البلدة قاموا بحملة تفتيش كبيرة... لكن كل ذلك كان بلا جدوى.

سعى جونسون المسكين للبحث عن حبيبته في كل أرجاء العالم، ولمَّا لم يجدها بعد سنواتٍ من المجهود المضني؛ عاد ليعيش ما تبقى من حياته وحيدًا في البيت الذي عاش فيه أسعد أيامه قديمًا مع حبيبته إميلي. عاش وحيدًا تمامًا، في البيت الخالي، يتجوّل في غُرفه المهجورة، يبكي وينوح ويدعو بعودة إميلي إليه.

وعندما مات المسكين، ظلَّ شبحه مستمرًا في عادات صاحبه، يبكي وينوح ويدعو).

....

كان الشبح لا يزال مقيمًا في البيت عندما استأجره أبي، وهذا ما جعل القائم بأعمال البيت يؤجره فقط بعشرة جنيهات في العام.

بعد تلك الليلة كنت أرى الشبح باستمرار طوال الليل، وكأن الجميع اعتاد على وجوده وتحرُكه بيننا. في البداية كنا نتنحّى جانبًا ليمر بجوارنا، ثم أصبح هذا الطقس غير ضروري، بعدما اعتدنا على مروره من خلالنا مباشرةً.

كان لطيفًا مهذبًا، وعجوزًا مسكينًا أيضًا، وجميعنا شعرنا

بالأسى وأشفقنا لحاله، حتى نساء البلدة أشفقنَّ عليه كحيوانٍ أليفٍ، فلفترة أثَّر فيهن إخلاصه.

لكن بمُضي الوقت أصبح الأمر مُملًا. فقد كان جونسون غارقًا في الحزن، ولم يكن به أي شيء مبهج أو لطيف.

بالتأكيد ستشعر بالأسى تجاهه، لكن بمرور الوقت سيزعجك الأمر، فالشبح يجلس على السُلَّم يبكي وينتحب لساعاتٍ متواصلة، وإنْ استيقظت من نومك أثناء الليل؛ سيكون بديهيًّا أن تسمع تسكُّعه في الممرات ودخوله وخروجه بين الغُرف. وسوف تسمع نشيجًا وأنَّاتٍ، حتى أنك لن تستطيع العودة للنوم مرةً أخرى.

وعندما كنا نُقيم حفلة؛ كان يحضرها، ويجلس خارج باب غرفة المعيشة يبكي طوال الوقت. هو لا ولن يؤذي أحدًا بشكل مباشر، لكنه يرمي بظلال حُزنه وكآبته على كل شيء.

ذات مساءٍ، قال أبي:

– لقد مللتُ هذا الشبح العجوز الغبي.

وذلك بعدما أصبح جونسون مصدرًا للإزعاج أكثر من المعتاد. فقد أفسد لعبة ورق جيدة، بعدما جلس فوق

المدخنة وبدأ يبكي، حتى لم يعد أحد يعرف الأوراق الرابحة أو حتى البديلة.

قال أبي:

- لابد وأن نتخلص منه بأي طريقة كانت، أتمنى لو أني أعرف طريقة مُجدية للتخلص من هذا الشبح للأبد.

قلتُ له:

- حسنًا، يجب أن تعتاد وجوده، فهو لن يغادر حتى يجد قبر محبوبته إميلي، فهذا كل ما يتمناه ويدعو به. جِدْ له قبر إيملي وأرشده إليه، وسوف يقيم عنده. هذا هو الحل الوحيد، ثِق بكلامي.

قالت الأم:

- تبدو الفكرة منطقية جدًا، لكنها صعبة للغاية، فلا يعرف أحدنا أي معلومة عن أين يقع قبر إميلي؛ أكثر مما يعرف شبح جونسون نفسه. وقد بحث العُمدة على امتداد أميال حولنا عن أي قبر لفقير أو مُعْدَم يحمل اسم إميلي، ولم يعثر على أي قبرٍ باسمها.

حينها طرأتْ برأسي فكرة وجازفتُ بطرحها:

ـ بإمكاننا تزييف قبر لهذا العجوز المسكين، خاصةً وأن عقله كما هو واضح ذو تفكيرٍ بسيط، وربما ستنطلي عليه الخدعة، لن نخسر بالمحاولة.

ـيا الله، هي الفكرة. فلنشرع بتنفيذها.

... قالها أبي.

في اليوم التالي أحضرنا عامل البناء، لِيقيم شاهد قبر في أخر البستان، وكتب عليه: (لذكرى إميلي المقدسة، والتي كانت كلماتها الأخيرة هي: أخبروا جونسون أني أحبه).

– تلك هي الكلمات التي ستجلبه إلى القبر، أنا متأكّد، وأتمنى أن يفعل.

... قالها أبي بعدما تفقد العمل فور انتهاء العامل منه.

وقد كان...

في الليلة نفسها، قُمنا باستدراجه إلى القبر المزيف، وحينها حدث أكبر مشهد مؤثّر رأيته في حياتي، فتلك الطريقة التي قفز بها جونسون على شاهد القبر وهو يبكي؛ لم أرَ مثلها في حياتي، حتى أن أبي والسيد سكوينزي البستاني العجوز بكيا كالأطفال للمشهد.

ومنذ ذلك الحين، لم يزعجنا شبح السيد جونسون، ولم يزُر بيتنا مرةً أخرى أبدًا. فهو يقضي كل لياليه على القبر، يبكي ويبدو في منتهى السعادة.

أيها الرفاق: أعدكم في زيارتكم لبيتنا المرة القادمة؛ سوف آخذكم لرؤيته من الساعة العاشرة ليلًا حتى الرابعة فجرًا كل ليلة، من العاشرة حتى الثانية في أيام السبت.

مقاطعة استرسال الحكي بقصة الدكتور

أبكتني القصة، فلقد رواها تيدي الشاب بعاطفةٍ كبيرة، حتى شرد ذهن الجميع قليلًا بعد انتهاء الحكي، حتى الدكتور العجوز لاحظته يمسح دموعه خِفْية.

سكب العم جون المزيد من كؤوس «بنش»، فاسترخى الجميع تدريجيًّا.

بعد قليل، بدأ الدكتور يبتهج شيئًا فشيئًا، وحكى لنا حكاية شبح لأحد مرضاه.

لكن في الحقيقة، لا يمكنني إعادة حكيها الآن، أتمنى إن استطعت، فالكل أجمع على أنها القصة الأفضل، والأكثر ترويعًا، لكنني على العكس منهم، أراها قصة غير مكتملة. فقد بدأها الرجل القصة بشكل جيد، ثم حدث شيءٌ ما أوصلها لمرحلة النهاية، دون أن أفهم ما الذي حدث بين البداية والنهاية. كل ما فهمته أن شخصًا ما وجَد شيئًا ما.

على أي حالٍ، كانت القصة هي الشُعْلة التي أنارت ذاكرة السيد كومبوس، فحكى لنا قصة عن الطاحونة القديمة التي عاش فيها صهره ذات مرة.

قال السيد كومبوس إنه سيحكي لنا، وقبل أن يوقفه أحد؛ شرع في الحكي.

وفرضت القصة نفسها لتُحكى.

حكاية السيد كومبوس

الطاحونة المسكونة
أو
البيت المُتهدَّم

لنبدأ...

جميعكم تعرفون صهري، السيد «جو باركينج»...

(هكذا بدأ السيد كومبوس الحكاية، بعدما أخرج الغليون من فمه ووضعه خلف أُذنه، وبالتأكيد لم نكن نعرف صهره، لكننا أكدَّنا على هذه المعرفة توفيرًا للوقت).

كان الصهر قد استأجر طاحونةً في بلدة «سوري» وذهب للعيش هناك، لابد أن تعرفوا أنه قبل هذا بعدة سنوات؛ كان يسكن الطاحونة رجلٌ عجوزٌ بخيل، ومات فيها. وذلك بعدما خبَّأ كل أمواله في مكانٍ ما في الطاحونة. وبالتأكيد؛ فإن كل من استأجر الطاحونة من بعده حاول العثور على الكنز المُخبَّأ، لكن لم يحالف أحدًا الحظُ أبدًا.

أحد حكماء المدينة العجائز قال إنه لن يعثر أحد على الكنز إلَّا إذا أرشده شبح العجوز بنفسه إلى المخبأ السريّ حيث يوجد الكنز.

لم يُعِر صهري اهتمامًا كبيرًا لتلك القصة التي عدَّها مجرد حكاية خرافية من حكايات العجائز الطيبات ليس أكثر. وعلى عكس أسلافه من المستأجرين؛ لم يحاول البحث لاكتشاف مكان كنز الذهب. كان يقول: (ما لم يكن عمل الطاحونة وما يـدرُّه من أربـاح مختلفًا في الزمن القديم عما هو الآن؛ فلن أعرف ما جنته الطاحونة، حتى مع بُخل صاحبها، وفي كل الأحوال، كيف لهذه الأموال أن تستحق كل هذا العناء؟).

لكن رغم قناعته هذه؛ إلَّا أنَّه لم يتخلص من فكرة الكنز تمامًا

ذات ليلة، دخل سريره لينام كما يفعل كل ليلة، فلم يكن بالشيء الغريب. لكن حينما دقَّت عقارب ساعة كنيسة البلدة، والقريبة من الطاحونة، لتُعلن انتصاف الليل عن الثانية عشر؛ استيقظ صهري من نومه واعيًا تمامًا، ولم يستطع العودة للنوم مرةً أخرى.

اعتدل (جو) وجلس على سريره ونظر حوله. عند حافة السرير؛ كان شيءٌ ما يقف ثابتًا بشدة، متدثّرًا بالظلال. وعندما تحرك هذا الشيء ووقف في بقعة الضوء التي

ألقاها القمر داخل الحجرة؛ اتضحت كينونته لصهري، فقد كان عبارة عن هيكل جسد رجل عجوز، يرتدي سروالًا قصيرًا حدَّ رُكبتيه، ويعقص شَعره كذيلِ خنزير.

حينئذٍ، وفي لحظةٍ واحدةٍ؛ ومَضتْ قصة الكنز المخفي والعجوز البخيل في ذهن «جو»، وقال لنفسه: (لم يأتني الشبح إلَّا ليدلني على مكان الكنز).

وقرَّر أنه عندما يعثر على الكنز؛ لن يُنفقه كله على نفسه، بل سيخصِّص حصةً منه لأفعال الخير.

تحرَّك الهيكل نحو الباب، فارتدى صهري سرواله وتبعه.

نزل الشبح إلى الطابق السفلي ودخل المطبخ، وحلَّق في فضائه، ثم وقف فوق الموقد، وتنهد.

في صباح اليوم التالي، أحضر «جو» البنائين، وأمرهم بسحب الموقد من مكانه وكذلك إنزال المدخنة، ووقف خلفهم يُمسك بكيس بطاطس فارغ، مستعدًا لملئه بالذهب.

هدم العُمَّال نِصف الجدار، ولم يعثروا على شيءٍ أكثر من أربعة شلنات، ولم يعرف «جو» حينها ما الذى يفعله.

في الليلة التالية، ظهر شبح العجوز مرةً أخرى، وأيضًا قاده إلى المطبخ، لكن هذه المرة، وبدلًا من أن يقف مكان الموقد، وقف في منتصف المطبخ بالضبط، وتنهد... ثم أشار إلى المكان أسفله.

قال صهري: (فهمتُ قصده الآن، فالكنز مُخَبَّأ في الأرض، لكن إن كان الأمر كذلك؛ فلماذا وقف هذا العجوز الأبله فوق الموقد في المرة السابقة، حتى أنني ظننتُ أن الكنز مُخبَّأ فوق المدخنة؟!).

بالتأكيد قضى العمال اليوم التالي بأكمله في التنقيب والحفر في الأرض، وهذه المرة لم يعثروا إلَّا على شوكةٍ بثلاثة سنون؛ ومكسورة المقبض.

عاد الشبح في الليلة الثالثة، وبلا أدنى شعورٍ بالخجل. وللمرة الثالثة قاد «جو» إلى المطبخ، لكن هذه المرة نظر إلى السقف... ثم اختفى.

قال صهري: (يا الله، للأسف، يبدو أن الشبح لم يعد يعرف أين خبَّأ الكنز عندما كان حيًّا. كان يجب أن أدرك ذلك من البداية).

وبعدها عاد لفراشه ليستأنف نومه.

ورغم ذلك، بقي لفترةٍ قبل نومه يُفكِّر أن الكنز؛ من دون شك؛ مُخبَّأ في السقف.

وأول عمل قام به في الصباح بعد تناول الإفطار، أن أمر العُمَّال بهدم السقف.

وبعد أن هدموه عن أخره، طرحوا كل شيءٍ أرضًا، حتى وصلوا إلى الألواح الخشبية المغطاة بها أرضية الغرفة في الأعلى، لم يجدوا شيئًا، لم يعثروا على أثرٍ للكنز أكثر مما يمكن أن تجده في زجاجة فارغة.

في الليلة الرابعة، وكعادة الشبح في الظهور بعد منتصف الليل، كان «جو» مُستاءً وغاضبًا للغاية، لدرجة أنه رمى الشبح بحذائه، لكن الحذاء مرَّ عبر جسد الشبح وكسر المرآة.

في الليل الخامسة، عندما استيقظ صهري كما أمست عاداته مؤخرًا، في الثانية عشر ليلًا، كان الشبحُ يقفُ حزينًا بائسًا جدًا. رغم ذلك، كان هناك شيء جذَّاب في نظراته الحزينة هذه؛ لمس قلب صهري وأثار شفقته، ودفعه

للتفكير في أنه: (ربما لا يزال العجوز يبذل قصارى جهده، وقد يكون حقًا قد نسيَ مكان الكنز، ويحاول الآن التذكر، وسوف أمنحه فرصةً أخرى).

أظهر الشبح امتنانه، وابتهج عندما رأى «جو» يقوم من فراشه ويتبعه. لكن هذه المرة صعدا إلى الطابق العلوي، وفيه أشار الشبح إلى السقف، كما عادته... ثم اختفى.

- أتمنى أن يكون هو المكان الصحيح هذه المرة.

... قال صهري.

وفي اليوم التالي بدأ العمل في خلع سطح البيت، استغرق خلعه بأكمله ثلاثة أيام. وأيضًا لم يجد شيئًا سوى عش عصفور أعاده إلى مكانه، وغطّى البيت بقماش المُشمَّع، بدلًا من السقف المخلوع، حتى يحافظ عليه جافًا.

الآن، سنفكِّر جميعًا بأن صهري وبعد كل تلك المحاولات الفاشلة في إيجاد الكنز؛ أيقن أنه لا كنز في البيت...

لكنه لم يفعل، بل قال: (بالتأكيد يوجد كنز أو أي شيء، وإلّا ما كان الشبح يدأب على المجيء كل ليلة كما يفعل. وبعد أن وصل الأمر إلى هذا الحد؛ يجب أن أستمر حتى النهاية،

فلابد من حل هذا اللغز مهما كلَّف الأمر).

ليلة بعد ليلة، استمر صهري في الاستيقاظ في منتصف الليل، يقوم من سريره، يتبع الشبح العجوز المحتال في أرجاء المنزل، وكل ليلة يشير العجوز إلى بقعة مختلفة من البيت، فيشرع «جو» في اليوم التالي في حفر تلك البقعة للبحث عن الكنز.

بعد مضيّ ثلاثةُ أسابيع، لم يكن ببيت الطاحونة حتى لو غرفة واحدة صالحة للعيش، تهدَّمت كل الجدران، نُقّبت وحُفرت كل الأرضيات، ثُقبت كل الأسقف.

وبعدها...

كما بدأتْ زيارات الشبح فجأة؛ توقفتْ أيضًا فجأة!

وتُرِك صهري في سلام لإعادة بناء البيت مرةً أخرى وقت فراغه.

لكن ما الذي دفع الشبح العجوز للقيام بهذه اللعبة السخيفة على ربِّ أُسرةٍ كصهري؟ على رجلٍ يدفع إيجار هذا المكان؟

هذا ما لا أعرفه، لكي أخبركم به.

لكن هناك أقاويل عن سبب ذلك، يقول البعض إن شبحَ العجوز الشرير قام بهذه الخدعة كنوع من العقاب لصهري لأنه لم يكن يُصدِّق بوجوده في البداية... والبعض الآخر يقول ربما كانت الأشباح التي تظهر؛ ما هي إلَّا أشباح السبَّاكين المحليين وعُمال تركيب زجاج النوافذ والأبواب، والذين كان من الطبيعي أن يستمتعوا برؤية البيت يُهدَّم ويخرَّب.

لكن لا أحد يعرف الحقيقة على وجه التحديد.

فاصل قبل الحكاية التالية

بعد انتهاء حكاية الطاحونة، شرِبنا المزيد من كؤوس «البنش»...

بعدها حكى لنا راعي كنيستنا حكاية مُربِكة؛ متشابكة ومتشعبة. حتى أنني لم أعرف للقصة بداية من نهاية لأُعيد قصَّها عليكم. وكذلك الباقون؛ لم يستطع أحد استيعاب القصة ومعرفة أولها من أخرها.

كانت القصة جيدة بقدرما تشعَّبت موادها، احتوت على قدر لا بأس به من المكائد، وأيضًا بها كمية لا تُحصى من الحوادث التي يمكنها ملء دستة من الروايات. في حياتي لم أسمع قصة بهذا الكم من الحوادث، أو بهذا القدر من تنوع الشخوص.

لذا لن أكون مبالغًا إن قلتُ إنها احتوت كل إنسانٍ قابله أو سمع به كاهننا... ببساطة؛ كان بها مئات البشر، كل خمس ثوانٍ كانت تقتحم القصة مجموعة شخصياتٍ جديدة تمامًا، ومصحوبة بمجموعة جديدة من الأحداث.

فكان مسار القصة في تشعُبها يُشبه الآتي:

(حسنًا، دخل عمي إلى الحديقة ليُحضر بندقيته، وبالتأكيد لم يجدها، وقال سكروجينز أنه لا يُصدّق ذلك).

- لا يُصدِّق ماذا؟ ومن هو سكروجينز بالأساس؟

(يااااه، سكروجينز، لم يكن هو، كان الرجل الآخر، كما كانت تعلم زوجته).

- ماذا، زوجة مَن؟ وما علاقتها بهذا؟

(لماذا؟، هذا ما كنت أُحدّثَكم به، فالزوجة هي من وَجدت القُبعة، جاءت إلى لندن مع قريبتها، والتي كانت أخت زوجتي، وابنة أختها الأخرى، تزوجت رجلًا اسمه ايفينز، وفي النهاية أخذ ايفينز هذا الصندوق الدائري إلى السيد جايكوبس، لأن والد السيد جايكوبس رأى الرجل عندما كان لا يزال حيًا، وعندما تُوفّيَ، فإن جوزيف...)

- اسمعنا الآن، دعك من ايفنز والصندوق الدائري، وقُص علينا ما الذي حدث لعمك وبندقيته.

(البندقية؟ أية بندقية؟)

- لماذا اعتاد عمك الاحتفاظ ببندقية في الحديقة؛ والتي لم يجدها هناك، وما الذي حدث؟ هل قَتل بها أي شخص

من قبل؟ هل قَتل بها أيًّا من جيكوبس، ايفينز، سكروجينز، أو جوزيف؟ لأنه لو حدث هذا فستكون حكاية جيدة، وسنسعد بسماعها.

(ماذا؟ لا، بالتأكيد لم يَقْتل أحدًا، بل سُجِنَ حيًّا في زنزانة أُغْلقتْ عليه بحائط، وعندما تحدث إدوارد الرابع في الموضوع إلى رئيس الدير، قالت أختي إنها لن تستطيع فعل ذلك، لأنه يُهدِّد حياة الطفل، لذا أطلقوا عليها «هوراشيو» بعدما مات ابنها في ووترلو قبل أن يُولد، وقال اللورد نيبير بنفسه..........)

– ما هذا؟ عما تتحدث أنت؟! هل أنت متأكّد مما تحكيه؟

... كلنا سألنا في نفس الوقت عندما وصل إلى هذه النقطة وسط كل هذا الارتباك والتشعب.

فقال: لا.

لكنه كان يعلم أن كل كلمة قيلت كانت حقيقة، لأن عمتَه رأت ذلك. وبعدها غطَّيناه بمفرش المائدة، فغطَّ في النوم.

حينها حكى لنا العم «جون» حكايةً، وقال إنها قصة حقيقية.

حكاية العم «جون»

شبح الغُرفة الزرقاء

(قبل أن نبدأ أيها الرفاق؛ اعلموا أنني لم أقصد بحكايتي التي سأسردها عليكم، أن أُثير قلقكم أو توتُركم)...

هكذا بدأ العم حكايته، فجُملته الغريبة هذه والتي أجاد استعمال صوته فيها بنبرةٍ خفيضةٍ مُدهشة؛ نجح بها في إلقاء الرعب في قلوب الموجودين.

ثم أكمل:

سوف أحكي القصة ما لم يكن لدى أي منكم اعتراض، لكن قبلها يجب أن أحذِّركم أن القصة حقيقية...

في الواقع، هذا البيت الذي نسهر فيه الآن؛ بيت مسكون.

سأل السيد كومبوس فزِعًا:

- لا تقُل! هل أنت جاد؟

ردَّ عمي مدهوشًا من قول كومبوس:

- ما فائدة الاعتراض على الحكي الآن، وبعد أن بدأتُ بالفعل؟ أنت تتكلم بغباء سيدي...

نعم، البيت الذي نعيش فيه هذا مسكون، بل وتحضر إليه الأشباح بانتظام، خاصةً في عشيَّات عيد الميلاد، يسكنون الغُرفة الزرقاء (هكذا يطلقون على الغرفة في الأعلى في بيت عمي، وجميع الحمامات في هذا الطابق موجودة في الظل).

هذه الغُرفة مسكونة بشبح مجرم، رجل ارتكب أكبر خطيئة يمكن أن يقترفها إنسان: «القتل».

الرجل كان قاتلًا، ذات مرةٍ قَتَل أحد مطربي ترنيمات العيد، ممن يجولون في شوارع المُدن. قتله بكتلةٍ من الفحم.

سأل السيد كومبوس قلِقًا:

- كيف فعل ذلك؟ وهل كان ذلك صعبًا؟

- لا أعرف كيف فعلها، لم يشرح العملية، فبعدما أخذ المطرب مكانه عند البوابة الأمامية، وجلس يُنْشد الترنيمة المشهورة، وبينما يفتح فمه بالنغمة العالية؛ ألقى هذا المجرم القاتل بقطعة كبيرة من الفحم من إحدى النوافذ حيث كان يقف، فدخلت في حلق المطرب، وخنقته حتى الموت.

غمغم السيد كومبوس:

- أصابه من النافذة؟! لابد وأنها كانت رمية بارعة، بالتأكيد استحقت المحاولة.

قال العم:

- تلك لم تكن جريمته الوحيدة، فقبلها قتل عازف البوق المنفرد.

علَّق كومبوس مصعوقًا:

- لا! هل حدث هذا فعلاً؟

- بالتأكيد حدث حقيقةً، وفي كل عشيات الميلاد، حقيقي بقدرما تتخيل أن يحدث من هذا المجرم.

(كم كانت أُمسية قلِقة ومثيرة للتوتر، بقدرالأدلة المذكورة)

أكمل العم:

لم يكن مضى على وجود عازف البوق المسكين في هذا الحي أكثرمن شهرواحد، وكان السيد «بيشوب» العجوز مديرمدرسة «جولي ساند بويز» في ذلك الحين، والذي عرفت بالقصة كلها منه، حكى لي أنه لم يعرف أحدًا أكثر اجتهادًا وحيويةً من هذا العازف، رغم أنه لم يكن يعزف

سوى لحنين، إلَّا أنه لا أحد يمكنه عزفهما أبرع منه، حتى لو قضى أربعين ساعة في العزف.

كان يعزف أغنيتي: «آنا لوري» وأغنية «وطني الحبيب»، ولم يكن يعزف غيرهما. ورغم براعة أدائه في اللحن الأخير، إلَّا أنه كان بالكاد طفلًا يعي معنى الأغنية، كما قال السيد بيشوب.

ذلك الموسيقي المسكين لم يكن له أصدقاء، دأب على المجيء إلى هذا الحي بانتظام والعزف لمدة ساعتين كل مساء. وذات مساء، وبعدما لبَّى كل دعوة للعزف أمام كل البيوت، شُوهِد يدخل هذا البيت، ولم يره أحد يخرج أبدًا.

سأل السيد كومبوس:

- ألم يمنحه أحد من سكان هذا الحي أية مكافأة مقابل هذا الشقاء؟

- ولا حتى سنت واحد.

ثم أكمل العم:

وفي صيف آخر، كانت هناك فرقة ألمانية تزور البلدة، عازمين - كما أعلنوا- على البقاء حتى حلول الخريف.

وفي اليوم التالي دُعيَ هؤلاء الرجال المفعمون بالصحة والروعة كما يتمنى الرجال جميعًا أن يكونوا؛ إلى العشاء في بيت هذا الرجل المجرم.

وبعد قضاء الأربع وعشرين ساعة التالية، وهم جميعًا مرضى طريحو الفِراش؛ غادروا البلدة مُحطَمين، يعانون مشكلة عُسر هضم كبيرة. الطبيب المرافق لفرقتهم والمختص فقط في رعايتهم الصحية، قال إنه يتشكك في قدرة أي منهم على العودة للعزف مرةً أخرى.

سأل السيد كومبوس:

ـ لكنك لا تعرف الوصفة التي قدَّمها الرجل لهم وأمرضتهم هكذا، أليس كذلك؟

– للأسف لا أعرفها، لكن أعتقد أن الوجبة الأساسية في عشاءهم هذا كانت فطيرة لحم الخنزير الباردة.

أكمل العم:

للأسف أيضًا نسيتُ بقية الجرائم التي ارتكبها الرجل، فلقد اطلعتُ عليها كلها ذات مرةٍ وعرفتها، لكن الذاكرة تخونني الآن، ومع ذلك أظن أن الذاكرة لا تزال محتفظة باعتقادي

التام بالصلة التي تربط هذا الرجل بموت ودفن الرجل المهذب الذي كان يعزف على آلة الهارب بأصابع قدميه.

كما أنني أذكر أيضًا صِلته الوثيقة بقبر عابر السبيل، ذلك الغريب الذي زاره ذات مرة، كان فتى إيطاليًا ريفيًا، وعازفًا على الأرجون.

أكمل العم بنغمة مُثيرة للرعب، قطع بها الصمت الرهيب الغريب الذي تسلّل إلى الغرفة وأظل الجميع:

في كل ليلة عيد ميلادٍ من كل عام؛ كل ليلة عيد؛ يأتي شبح هذا المجرم، ويسكن الغرفة الزرقاء بهذا البيت، من منتصف الليل وحتى صياح الديك فجرًا. وهناك من وسط البرية؛ نسمع أصوات صرخات مكتومة وأنّاتٍ وضحكات ساخرة. نسمع أصواتًا شبحية، وضرباتٍ مروّعة، أصواتَ مقاومة؛ كأنها تقاوم شبحًا شرِسًا. وروحَ عازف البوق المنفرد، وأصواتَ أفراد فرقة ترانيم العيد الجوّالة، وأفراد الفرقة الألمانية. بينما يعزف شبح عازف القيثارة المشنوق ألحانًا مجنونة شجية، على قيثارة مكسورة.

الآن، أُعلن أننا لن نستطيع الاستفادة من الغرفة الزرقاء في هذا الوقت من العام لاستعمالها كغرفة نوم.

... قال العم، ثم أشار بيده ناحية سقف الغرفة، بينما نحن كنا نكتم أنفاسنا ونُصغي السمع.

اسمعوا، اسمعوا... أعتقد أنهم هناك الآن، لقد حضروا جميعًا واحتلوا الغُرفة الزرقاء.

- الغُرفة الزرقاء!!

... وقفتُ وأعلنتُ رغبتي في المبيت الليلة في الغرفة الزرقاء...

وذلك قبل أن أحكي لكم حكايتي الخاصة، وأقص عليكم ما الذي حدث بهذه الغرفة.

توضيح شخصي

ترددتُ كثيرًا بخصوص سرد حكايتي عليكم...

فكما سترون فهي ليست كأية حكاية مما رواه عليكم ضيوف الحفل سابقًا؛ سواء حكاية تيدي بافيلز، أو حكاية السيد كومبوس، ولا حتى حكاية عمي...

لأنني ببساطة؛ سأقص عليكم حكايةً أحداثها حقيقية، وقعت بالفعل.

هي ليست ككل تلك الحكايات التي يحكيها الناس في عشيات عيد الميلاد وهم محلّقون حول المدافئ يشربون الويسكي.. لأن ما سأحكيه لكم حدث لي في الواقع.

في الحقيقة ما سأحكيه لا ينتمي إلى «فن القصة» بالمعنى المفهوم والمتعارف عليه، لأنه أقرب ما يكون إلى «التقرير»، لدرجة أني أشعر أن موضوع هذا الكتاب لا يتناسب معه، والذي كان الأنسب له كُتب السيرة الذاتية، أو كُتب التاريخ الإنجليزي.

بالإضافة إلى سبب آخر يُصعِّبُ عليَّ الحكي، وهو أن القصة تدور حولي، عن ذاتي. فإن قصصتها عليكم؛ سيتوجب عليَّ

حينها استكمال التحدث عن نفسي. وفي وقتنا الحاضر إن تحدَّث أحد المؤلفين المشهورين عن نفسه فإن هذا يُقابل باعتراض قوي.

فنحن رواد مدرسة الأدب الحديث تتنازعنا رغبتان كبيرتان متضادتان: رغبة وتوق إلى سماع وتلقي الثناء والمديح، ورغبة في عدم الظهور بمظهر المغرورين.

وأنا عن نفسي، وكما قيل لي عن هذا الخجل والتكتم حد الانطواء فيما يتعلق بأي شيءٍ مرتبطٍ بشخصي، فإن الناس يأتون إلـيَّ مُتذمرين ويقولون: (حسنًا، والآن، لماذا لا تحدّثنا عن نفسك أبداً، حتى لو شذرات صغيرة؟ هذا ما نريد أن نقرأه، احكي لنا شيئًا عنك أنت).

ولكني دائمًا ما أجيبهم بالرفض وأقـول: لن أتحدث عن نفسي، فلا أظن أن بحياتي موضوعًا واحدًا مثيرًا للاهتمام، أو أتخيل أنه يمكن أن يبهر العالم، ولا حتى الجزء المتعلق بثقافتي أو نشاطاتي الثقافية.

مبدئيًا، لن أفعل ما يطلبه الناس من ذِكر أحداث حياتي الخاصة بشكل فني، فهذا سيكون مثلًا سخيفًا للكُتَّاب

الجُدد، على الرغم من معرفتي أن البعض يفعلون ذلك، لكني لن أحاكيهم، فهذه ليست قناعاتي.

في الظروف العادية؛ ما كان لي أن أروي لكم هذه القصة على الإطلاق، كنت سأقول لنفسي: هذه حكاية جيدة، أخلاقية، وقوية، وغريبة، بل وهي نوع آسر من القصص، وكنتم ستحبون سماعها كما أتوقع، وكنت سأحب حكيها لكم. لكنها كلها تدور حولي، عني أنا، عما قلت، عما سمعت، عما رأيت، وماذا فعلت.

ليس بإمكاني فعل ذلك كم سبق وذكرت، فطبيعتي الانطوائية المعادية للغرور لن تسمح لي بالتحدث عن نفسي بهذه الطريقة.

لكن نظرًا للظروف الحالية والاستثنائية المحيطة بهذه الحكاية؛ سأفعل.

إضافةً إلى وجود سبب آخر يدفعني - على الرغم من تواضعي - إلى اغتنام فرصة حكيها، وهذا السبب أشرتُ له في بداية الكتاب، وهو أن حفلة عيد الميلاد لم تعد محل ترحيب كبير في عائلتنا. أما بالنسبة لي أنا شخصيًا وعن

حصتي في الأحداث التي أدَّت إلى ذلك، فأنا الآن على وشك كشف الظُلم الفادح الذي وقع عليّ. لذا سأغتنم فرصة الحكي كوسيلةٍ لتسليط الضوء المناسب على شخصيتي لتبديد غيوم الافتراء وسوء الفهم التي ظُلمتُ بها.

همي الأساسي، وبكل صراحة: تبرئة نفسي من كل تشهير ظالم.

وبما أن هذا هو دافعي الأساسي للحكي، والذي أحسبه دافعًا شريفًا نزيهًا، لذا أجد نفسي بهذا الدافع قد تخلصت من شعوري بالاشمئزاز الذي يمكن أن ينتابني عندما أحكي عن نفسي، وبالتالي أستطيع الآن إخباركم بالحكاية...

حكايتي الخاصة

حالما انتهى عمي من سرد قصته عن شبح الرجل المجرم؛ وقفتُ من مكاني، وكما قلتُ لكم سابقًا، وأعلنت أني سأبيتُ ليلتي في الغرفة الزرقاء.

- مستحيل...

هكذا انتفض عمي من مكانه وصاح مصدومًا، وأكمل:

- لا يمكن أن تضع نفسك في هذا الموقف المُميت. ثم أن السرير في الغرفة غير مُعَدّ لاستعمال الضيوف.

- لا تهتم كثيرًا بمسألة إعداد السرير هذه، فأنا عشتُ في شقة شبابٍ عُزَّابٍ، وكنت فيها أنام على أَسرَّةٍ لم تُرتب أو تُعد للنوم منذ ما يقرب من عام. وأرجوك لا تحاول التثبيط من عزيمتي، فأنا رجل أعيشُ بضمير مرتاح وصافٍ منذ ما يقرب من الشهر، فالأرواح لن تؤذيني، بل على العكس يمكنني إسداء معروف لهم وأحثهم على الهدوء، أو ربما الرحيل إلى مكانٍ آخر. بالإضافة إلى رغبتي وفضولي لمشاهدة عروضهم.

... قلتُ هذا، وجلستُ مكاني مرة أخرى.

لكن ما يحيِّرني حتى يومنا هـذا، هو كيف أتـى السيد كومبوس من مكانه في الجانب الآخر من الغرفة، والذي ظلَّ جالسًا فيه طوال الليل، وجلس على كرسيّ الخاص؟!... ولماذا لم يعتذر أبدًا عندما جلستُ فوقه حين لم أنتبه لاحتلاله مكاني؟!

أيضًا لماذا لم يحاول «تيدي بيفلز» إثنائي عما انتويتُ عمله؛ مثلما فعل عمي. حتى أنـه، وتحت ضغطٍ منه، أجبرني على مصافحة يده لما يقرب من الثلاث دقائق، واضطرني لقول إنني دائمًا ما كنت اعتبره بمثابة أبٍ لي.

على أي حـال؛ حـاول الجميع منعي من الصعود للغرفة الزرقاء، أو كما أسموه: «مشروعي المتهور». لكنّي كنتُ عنيدًا وعازمًا على ما انتويت، وطالبتُ بحقي كضيفٍ في المبيت في الغرفة الزرقاء المسكونة في ليلة عيد الميلاد، فهذا يُعَدُّ امتيازًا خاصًا بالضيوف.

قالوا إن كان الأمر كذلك فهم لا يملكون المحاولة مرةً أخرى، ولأفعل ما أشاء.

بعدها أوقـدوا لي شمعدان، ورافقوني إلى الـدور العلوي ملتصقين ببعضهم البعض.

وسـواءً كنتُ مدفوعًا إلى هذا العمل عن اقتناعٍ بأني أؤدي عملًا نبيلًا، أو كنتُ أتحرك بدافع إيماني وثقتي في رجاحة عقلي ورأيي – إن جازلي قول هذا – فإني في النهاية صعدتُ إلى الغرفة الزرقاء في الدورالعلوي تلك الليلة بابتهاجٍ غير عـادي، ونشوة غريبة، حتى أنني عندما وصلت الغرفةَ تمنيتُ أن أُكمل صعودًا حتى السطح، لكن بمساعدة درابزين السلَّم، كبحتُ طموحي، وتمنيتُ للجميع ليلة سعيدة، قبل أن أدخل الغُرفة وأُغلِق الباب.

من اللحظة الأولى التي خطوتُ فيها داخل الغرفة، وحتى قبل أن أنـزل يدي من على مقبض الباب؛ بـدأتْ الأمور تـسوء...

سقطت الـشـمـوع كلها مـن الـشـمـعـدان على الأرض، وانطفأتْ. انحنيتُ والتقطتها لأُثبِّتُها في الشمعدان مرةً أخرى، لكنها سقطت ثانيةً!

وظللتُ ألتقطها وأُثبّتها... وظلت تسقط وتنطفئ.

فقررتُ رمي الشمعدان وإمساك الشمعة بيدي، لكن حتى في يدي لم أستطع الحفاظ عليها بوضعٍ مستقيم... حتى سِئمتُ وهاجت أعصابي، فرميتُها من النافذة.

بعدها خلعتُ ملابسي وآويتُ إلى فراشي في الظلام.

لم أنم، لم أشعر بالنعاس مطلقًا. تمددتُ على ظهري وظللتُ أنظر إلى السقف وأفكِّر في كل شيء.

أتمنى لو أتذكر الآن بعض الأفكار التي راودتني ليلتها وأنا ممدد هناك، كانت أفكارًا مُسليةً للغاية، حتى أنني ضحكتُ منها حتى اهتز السرير.

ظللتُ ممددًا أفكِّر هكذا لحوالي نصف ساعة، ونسيت كل ما يتعلق بالأشباح.

وفجأةً، وبينما أتجول بناظري في أنحاء الغرفة أتفحصها بشكل عشوائي... لمحتُه للمرة الأولى...

شبح وحيد، يبدو راضيًا تمامًا، يجلسُ مستريحًا على كرسي بجوار المدفأة، يُدخِّن غليونًا شبحيًا طويلًا مصنوعًا من الفخار.

لوهلة، ظننت أنني أتخيل. بالتأكيد أي شخص في مكاني كان سيظن أن ما يراه ليس إلَّا محض خيالاتٍ، أو أنني كنت أحلم.

جلست فوق السرير، وفركت عينيَّ بيديّ حتى أتأكّد من أن

هذا ليس حُلمًا:

– لا، بالتأكيد ليس حلمًا. كان شبحًا بالفعل. هذا واضح تمامًا، فبإمكاني رؤيـة ظهر الكرسي من خـلال جسده الطيفي.

وفجأةً نظر ناحيتي. أخرج غليونه الغريـب من بين شفتيه، وهزَّ رأسه...

لكن أكثر ما أدهشني فيما حدث، أنني لم أشعر بأدنى قدرٍ من الانزعاج أو الخوف مما رأيت. بل أودُّ أن أقول صراحةً، إن كل ما شعرتُ به هو السعادة لرؤيته، فرغم كل شيء؛ هو رفيق في ليلةٍ طال فيها الأرق.

بدأتُ بمسامرته:

– مساء الخير. الطقس اليوم شديد البرودة.

ردَّ عليّ بأنني مُحِق، وأنه لاحظ ذلك بنفسه.

ظللنا صامتين لبضع ثوانٍ، وبعدها انتابتني رغبة صادقة في وصف شعوري بهذه اللحظة...

– لي كل الشرف بمخاطبة شبح سيد نبيل مثلك، والذي كانت له حادثة مع فرقة ترانيم العيد.

ردَّ الشبح:

– من الرائع أن تتذكر هذا. لكنها كانت فرقة واحدة، ليس هناك الكثير للتباهى به. لكن لا يزال هذا القليل رائعًا.

اندهشتُ قليلًا من إجابته، فقد كنت أتوقع أنين الندم، لكنه على العكس تمامًا من هذا، كان مغرورًا متفاخرًا بعمله، أو هذا ما ظننتُه، خاصةً بعدما أخذ إشارتي إلى حادث فرقة ترانيم العيد بهدوء.

إذًا، أعتقد أنه لن يستاء أو يغضب إن سألته عن الفتى عازف (البيانولا)، لدي فضول لمعرفة ما حدث لهذا الفتى المسكين...

– هل صحيح أن لك يدًا في موت ذلك الفلاح الإيطالي الذي أتى ذات مرةٍ إلى البلدة كعابر سبيل، وكان يعزف على (البيانولا)، ولم يكن يعرف سوى أغنية «هواء أسكوتلندا»؟

عندها استشاط غضبًا، وقال:

– أتقول لي يد؟! من ذا الذي تجرَّأ وادعى أنه ساعدني في ذلك؟ لقد قتلتُ هذا الفلاح بنفسي، أنا فقط دون مساعدة

من أي شخص، قتلتُه بمفردي. فأرني من اِدَّعى غير هذا؟

حاولت تهدئة غضبه، وأكّدتُ له أني لم أشك أبدًا، ولا حتى بفكرةٍ في ذهني؛ أنه هو القاتل الحقيقي والأوحد.

ثم سألته عن عازف (بوق الكورنيت) الذي قتله...

فردَّ مُستفسرًا:

- أي واحد منهم تقصد؟

رددتُ مصعوقًا:

- أووه، هل كانوا كثيرين؟

ابتسم وتنحنح قليلًا، وقال:

- لا أريد أن أظهر بمظهر المتباهي بعمله، لكن عدد عازفي الترمبون كانوا سبعة.

- يا حبيبي! لابد وأنك قضيتَ الكثير من حياتك السابقة منشغلًا في التخلص منهم واحدًا تلو الآخر.

- لا يجب عليّ التحدث بهذه الطريقة، أو قول ما سأقول، لكن هذا صحيح؛ قضيتُ الكثير من الوقت في ذلك.

... ردَّ الشبح بكل ثقة.

وبالحديث عن الطبقة المتوسطة العادية، فإن بعض الأشباح منهم ينظرون إلى حيواتهم السابقة بكثيرٍ من الغرور ويظنون أنها كانت أكثر فائدة؛ خاصةً وإن طالت.

وبينما أنا جالس أراقبه، وجدته يشيح بوجهه، وينفث دخان غليونه، ثم غرق في صمت عميق لبضع ثوانٍ.

لم يسبق لي أبدًا – أو حسب ما أذكر – أن رأيت شبحًا يدخِّن الغليون، وهذا أثار حماستي لسؤاله عن نوع التبغ الذي يُدخِّنه، فأجاب:

– عادةً أُدخِّن تبغ « كافنديش ».

ثم استفاض في شرح كيف أن كل شبح يدخن تبغ صاحبه الذي كان يدخنه في حياته، فبعد موت الشخص يمتلك شبحه نفس نوع التبغ أيضًا، وبنفس الكمية. ثم قال إنه دخَّن كمية كبيرة من تبغ «كافنديش» عندما كان على قيد الحياة، ولهذا فهو الآن يملك كمية كبيرة منه بعدما تحوَّل إلى شبح.

لاحظتُ واستوعبت كم هذا شيء مفيد، وكان حظي جيدًا أن عرفته الآن، لذا فقد اتخذت قرارًا بتدخين أكبر قدرٍ من

التبغ وبقدر استطاعتي؛ قبل أن أموت. وبدأتُ في تنفيذ قـراري من الآن، فاستأذنتُ الشبح أن أشاركه تدخين غليونه.

شيئًا فشيئًا آنـس أحدنا الآخـر، ونَمت بيننا مـودة حد الصداقة، وبدأ يحكي لي عن كل جرائمه التي ارتكبها خلال حياته.

قال إنه ذات مرة، كان له جارة شابة صغيرة تتعلم العزف على الجيتار، بينما الشاب في البيت المقابل كان يعزف على آلة الكمان. وبخطة شيطانية ماكرة منه، عرَّف هذين الشابين ببعض، وبعدها أقنعهما بالهرب سويًا والزواج ضد رغبة أُسرتيهما، وأن يأخذا آلتيهما الموسيقيتين معهما... وقبل انتهاء شهر العسل؛ حطَّمت الفتاة رأس الشاب بآلة الكمان، بينما هو حاول حشر الجيتار في حلقها مما تسبب لها بعاهة تلازمها مدى الحياة.

وبعدها حكى لي «صديقي الشبح» كيف اعتاد على استدراج بائعي الكعك إلى الممر وحشو أفواههم بكعكهم حتى ينفجروا ويموتوا، وأقرَّ أنه قتل منهم ثمانية عشر رجلًا بهذه الطريقة.

بالإضافة إلى الشباب والشابات الذين كانوا يلقون القصائد الكئيبة في الحفلات المسائية، وأيضًا الشباب المتجولين في الشوارع في أوقات متأخرة من الليل والذين كانوا يعزفون على « الكونسيرتنياس »، لكن هؤلاء بالذات كان يجمعهم ويقتلهم بالسم على دفعاتٍ من عشرة أفراد، وقال إن هذا لتوفير النفقات.

أما خُطباء الحدائق، ومَن يحاضرون الناس في الزهد؛ هؤلاء اعتاد على حبس كل ستةٍ منهم في غرفة صغيرة جدًا، ويترك معهم الصندوق الذي يجمعون فيه التبرعات، وكوب ماء واحد، وفقط يتركهم يتحدثون إلى بعضهم البعض، حتى يموتوا جميعًا.

كان من الرائع الاستماع إلى هذا الشبح الصديق...

سألتُه إن كان يتوقع حضور أشباح آخرين؟ كأشباح أعضاء فرقة كورال ترانيم العيد المتجولين؟ أو شبح عازف القيثارة؟ أو حتى أشباح الفرقة الألمانية التي حكى عنهم العم جون؟

فابتسم مرةً أخرى، وقال إنهم لن يحضروا أبدًا، ولا أي واحدٍ منهم.

سألته:

ـ لماذا؟ وهل صحيح أنهم كانوا يحضرون كل عام لمقابلتك هنا في عشية عيد الميلاد ليتنازعوا ويتشاجروا معك؟

ردَّ مؤكِدًا هذه الحقيقة:

– عشية كل عيد ميلاد، وطوال خمسةٍ وعشرين عامًا مضت، كنا أنا وبقية الأشباح نحضر ونتقابل ونقضي ليلتنا جميعًا في النزاع والتشاجر في هذه الغرفة الزرقاء. لكنهم لن يجرؤوا على إزعاجك أو أي أحدٍ آخر أبدًا بعد الآن. فلقد سقتهم جميعًا خارج البيت واحدًا تلو الآخر، فقد كانوا مخرِّبين وعديمي المنفعة، لا فائدة تُرجى منهم لأي غرضٍ من الأغراض التي يكون من أجلها المكان مسكونًا. وفي هذا المساء فقط وقبل أن تصعد أنت إلى هذا الطابق مباشرةً، تخلصتُ من أخر شبح لأعضاء الفرقة الألمانية، وألقيتُ ما تبقى منه للخارج من بين فتحات إطار النافذة. ولن تكون هناك فائدة من استدعاء أي أشباح مرةً أخرى.

قلتُ:

– هكذا أظن أنك فقط من ستحضر بنفسك كل ليلة عيد ميلاد كما هي العادة، أليس كذلك؟ لأنهم سيتأسون لفراقك كما أعرف.

- لستُ متأكدًا حقًا من هذا، فليس هناك شيء آتي من أجله بعد الآن، إلَّا إذا كنتَ أنت أيضًا ستأتي العام القادم إلى هنا، ففي ليلة عيد الميلاد القادمة إن أتيتَ أنت وقضيتَ ليلتَك هنا في الغرفة الزرقاء؛ سوف آتي، فلقد أحببتك كثيرًا، فأنت لم تقفز من مكانك خوفًا، أو تطير صارخًا، أو ينتصب شعرك حتى، فليس لديك فكرة كم أكره ويزعجني أن أرى شعر الناس ينتصب خوفًا عندما يروني.

بدأ يصل للغرفة صوت ضجيج طفيف من الساحة أسفلنا، فتحوَّل لون الشبح إلى الأسود (لون الأموات)، فصِحتُ فيه قلِقًا:

- هل أنت مريض؟ أخبرني إن كان هناك ما يمكنني عمله من أجلك. هل أشرب بعض النبيذ وأنفث شذاه في وجهك؟

لكنه لم يرد، ظلَّ صامتًا يصغي إلى الضجيج الخافت باهتمام. ثم تنهد تنهيدة ارتياح، وعاد لونه الشبحي إلى وجنتيه مرةً أخرى. وأخيرًا تكلم قائلاً:

- لا تنزعج، كل شيء بخير، فقط كنتُ أحسب أن هذا صياح الديك.

– لا، فالوقت لا يزال مبكرًا لصياح الديك، نحن مازلنا في منتصف الليل.

– لا يشكِّل الوقت؛ سواء منتصف الليل أو أخره؛ أي فارق لدى تلك الدجاجة الملعونة، فهم يصيحون بسرعة في وسط الليل هنا أكثر مما يفعل رِفاقهم في أي مكانٍ آخر، كما لو كانوا متأكدين أن بصياحهم هذا سيُفسدون أمسية أحدهم. أعتقد أنهم يفعلون هذا عن قصد، فأنا لي شبح صديق، وهو شبح الرجل الذي قَتَل مُحصّلَ فواتير المياه، وكان هذا الشبح يسكن بيتًا في «لونج أكر»، وفيه كان مالكو البيت يرّبون الدجاج في قبو المنزل، وفي كل مرةٍ يمرُّ فيها رجال الشرطة ويومضون فلاشاتهم ناحية نافذة القبو للتفقد الروتيني؛ يتوهم الديك الكبير أن ضوء الفلاش هو شروق الشمس، فيبدأ في الصياح كالمجنون. وكان صديقي الشبح المسكين يتلاشى ويختفي، وأحيانًا كان يحدث هذا في وقت مبكر، ربما تكون الساعة الواحدة صباحًا، وبعدما يغادر مرتعبًا يقسم أنه لم يسكن البيت إلَّا ساعة واحدة.

– هذا ليس عدلاً.

أكمل غاضبًا يصيح:

– هذا ترتيب سخيف جدًا. لا أستطيع تخيُل ما الذي فكَّر فيه هذا الشبح العجوز عندما حدث له ذلك. لكني أخبرته كثيرًا بالقاعدة العامة بأن الديك له وقت مُحدَّد للصياح، وقت يلتزم به الجميع، قُلْ مثلًا في الساعة الرابعة في الصيف والسادسة في الشتاء، وعندما يعرف ويتأكد من هذه القاعدة سيتأكد ويعرف ما الذي يسمعه على وجه اليقين.

– لكن أخبرني، ماذا تفعل إن لم يكن هناك ديك قريب منك؟

صمتَ مرةً أخرى ليصغي، لكن هذه المرة تأكّدتُ مثله أن هذا صياح حقيقي لديك السيد «بيويلز» صاحب البيت المجاور. صاح الديك مرتين، فقال الشبح:

– ها أنت ذا.

وقام من كرسيه بجوار المدفأة. سار حتى وصل إلى قبعته وقال:

– هذا ما كنا نتحدث عنه، كم الساعة الآن؟

نظرتُ إلى ساعتي، كانت قد تجاوزت الثالثة والنصف.

قال لي غاضبًا:

- فكَّرتُ كثيرًا في إنْ تمكَّنتُ يومًا من القبض على هذا الطائر بين يديّ، فسوف أكسر عنقه.

وبعدها جهَّز نفسه للرحيل.

- إذا سمحت انتظر نصف دقيقة، سأوصلك للخارج، وأسير معك قليلاً.

... قلتُها وأنا أنهض من سريري.

- هذا لُطف منك وكرم كبير، لكني سأشعر كم أنا سخيف إن استدرجتك للخارج في مثل تلك الساعة.

- لا، إطلاقًا، فأنا أحب المشي.

ارتديتُ ملابسي، وتناولت مظلتي، بينما لفَّ هو ذراعه حول ذارعي، وانطلقنا للخارج سويًا.

عند البوابة، كان يقف الضابط «جونز» أحد رجال الشرطة المحليين...

- مساء الخير جونز.

... ألقيتُ عليه تحية المساء، فدائمًا ما أشعر بالود في أوقات العيد.

– مساء الخير، سيدي.

... ردَّ الضابط بقليل من التجهم. ثم أكمل:

– هل لي أن أسألك ما الذي تفعله هنا في هذه الساعة؟

– لا شيء، على أي حال أنا بخير. فقط أسير مع صديقي، أوصله وهو مغادر إلى بيته.

... أجبتُ وأنا ألوِّح بمظلتي.

– عن أي صديق تتحدث؟

– أووه، نسيت، بالتأكيد أنت لا تستطيع رؤيته، ببساطة لأنه شبح، شبحُ الرجل الذي قتل فرقة ترانيم العيد الجوَّالة، أنا فقط سأوصله حتى زاوية الشارع.

– أظن أني لو كنت مكانك ما فعلت هذا، سيدي.

... قالها جونز محذِّرًا، وأكمل:

– لو تأخذ بنصيحتي، ودّع صديقك هنا، والآن، ثم عُد للبيت، فأنت، كما أعتقد، غير واعٍ، إنك تسير غير مرتدي إلَّا قميص وقبعة النوم، وزوج من الأحذية. أين بنطالك؟

لم تُعجبني أخلاق الرجل إطلاقًا، لكني رددت:

- جونز، كنت أتمنى أن أُجيبك على سؤالك الأخير، لكني أعتقد أنك، كما هو واضـح، ثمل، فأنا أرتـدي بنطالي في ساقيّ كما يرتديه كل الرجال، أنا متأكد من أني ارتديته.

- تمامًا، لكنك لا ترتديه الآن.

... قالها مقرِّرًا.

- معذرة! ماذا تقول؟! لقد أخبرتك أني أرتدي بنطالي، أظن أن هذا أمر يتيقن المرء منه قبل الخروج من المنزل.

- أنا أيضًا متأكد من أنك لا ترتديه الآن، الآن عد معي إلى البيت ولا تدعنا نقضي الليل كله نتجادل في هذا.

عند هذه النقطة خرج عمي إلى باب البيت، بعد أن أيقظه صوتُ جدالنا على ما أعتقد، وفي اللحظة التالية ظهرت العمة ماري تقف في النافذة ترتدي قبعة نومها.

شرحت لهم سوء فهم الضابط، وحاولت توضيح المسألة بقدر استطاعتي، وحتى لا أُدخِل عمي في مشكلات مع الشرطة؛ اِستدرتُ ناحية الشبح أطلب تأكيده على أقوالي. لكنه كان قد اختفى!...

تركني دون كلمة واحدة، دون أن يودِّعني حتى.

صُعِقتُ من قسوته، لقد مضى في طريقه واختفى، دفعني هذا للبكاء، فخرج إليّ العم جون، وأدخلني البيت.

وبالفعل، بعدما وصلتُ لغرفتي؛ اكتشفتُ أن الضابط جونز كان مُحقًا، ولم أكن أرتدي بنطالي، فهو لا يزال مُعلّقًا على حافة السرير.

أعتقد أني حين تعجلتُ في ارتـداء ملابسي، حتى لا أدع الشبح ينتظرني لأسير معه؛ نسيتُ ارتداءه.

من هذه الحالة أستطيع استخلاص حقيقة واضحة لا شك فيها: وهي أن العقل الخيِّر السليم، مستحيل أن تنبع منه الافتراءات.

لكن هذا المستحيل وقع بالفعل....

هناك أشخاص، – وأقـول: أشخاص – أعلنوا أنهم غير قادرين على فهم الظروف البسيطة التي وردتْ هنا إلَّا على ضوء التفسيرات المُضللة والمُهينة... فأنا أُهِنتُ وشُهِّربي، ممن هم من لحمي ودمي.

ومع ذلك، لا أحمل أي مشاعر سيئة تجاههم، فأنا بالكاد، وكما سبق وقلت، عرضتُ حكايتي بغرض تبرئة شخصي من الشك المُهين.

Jerome Klapka Jerome

جيروم كلابكا جيروم

(٢ مايو ١٨٥٩ - ١٤ يونيو ١٩٢٧)

كاتب ومسرحي وروائي بريطاني شهير من العصر الفيكتوري.

امتلك جيروم ذخيرة من الخبرات والتجارب الحياتية التي جعلت له عينًا ناقدة وقلمًا غاية في الذكاء، يحمل رسائل فلسفية عميقة في محتواه، حتى أثر أسلوبه الأدبي في الكثير من الكتاب والأدباء والمسرحيين في إنجلترا.

أصدر العديد من الأعمال الأدبية التي لاقت نجاحًا وقبولًا واسعًا. واشتهر برواياته المصوّرة التي قدّمها للأدب الغربي. وما زال الناس يُخلّدون أعماله ويقرؤونها في جميع أنحاء العالم. حتى أصبحت كتبه من أكثر الكتب مبيعًا في العالم.

وُلِد جيروم عام ١٨٥٩ في قرية كالدمور القريبة من برمنجهام وسط إنجلترا. وعاش طفولته يعاني من الفقر والحرمان إلى أن توفّي والده وهو في سن الثالثة عشر، وبعد ذلك بعامين توفّيت والدته، فاضطرّ لترك مدرسته (ماري ليبتون الثانوية في لندن) والعمل في وظائف بسيطة لتأمين لقمة عيشه، حيث عمل أربع سنوات في سكّة حديد لندن يجمع الفحم.

في عام ١٨٧٧ قرّر أن يخوض تجربة التمثيل في المسرح، فانضم لفرقة أنتجت العديد من المسرحيّات ضمن ميزانيّة محدودة.

بعد ثلاث سنوات في المسرح دون تسجيل أيّ نجاح يُذكر، قرّر جيروم في عُمر ٢١ عامًا أن يمتهن الصحافة ويكتب المقالات والهجاء والقصص القصيرة، إلّا أنّ أكثرها لاقت رفضًا واضحًا.

في عام ١٨٨٥م بدأ بتحقيق ببعض النجاحات من خلال كتابة النثر الكوميدي، ونال درجة من التقدير عن كتابه (المسرح والإيقاف)، والذي صوَّر حياة الممثلين المسرحيّين، مستوحيًا تجاريه مع فرقة التمثيل، وتلاها كتاب (أفكار تافهة لصديق كسول) والذي ضم مجموعة من المقالات الفكاهية.

في عام ١٨٨٨م تزوّج من جورجينا إليزابيث، وقضى معها شهر العسل على نهر التايمز في قارب صغير، ومن هنا استلهم فكرة كتابه (ثلاثة رجال في قارب) الذي تمَّ نشره عام ١٨٨٩، ويُعد أشهر أعماله حيث لاقى نجاحًا باهرًا وتم تحويله إلى أفلام ومسرحيات ومسلسلات إذاعية.

في عام ١٨٨٩ أصدر كتاب (أفكار تافهة لرجل كسول)، وهو عبارة عن سلسلة من المقالات ظهرت بمجلة هوم شايمز تم جمعها فيما بعد لتنشر في هذا الكتاب الذي يحتوي على تأملات ساخرة لجيروم.

في عام ١٩٠٧ أصدر مسرحية (العودة من الطابق الثالث) والتي تعد أكثر مسرحياته شهرة، رغم أنها ليست كوميدية، حيث تناول فيها تأثير الغريب المتشبه بالمسيح على مجموعة من البخلاء وعديمي الحيلة.

عندما بلغ جيروم من العمر ٥٦ عامًا، تطوّع ليخدم بلاده عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، إلّا أن الجيش البريطاني رفضه، فتطوّع للعمل كسائق لإسعاف الجيش التابع لفرنسا.

في عام ١٩٢٦م كتب جيروم سيرة حياته الذاتية في مزرعة منزله الذي قضى فيه أواخر حياته، وأصيب في العام الذي يليه بسكتة دماغية ونزيف في الدماغ أودى بحياته، وكان ذلك عام ١٩٢٧م.

من أعمال جيروم الأخرى:

رواية ثلاثة رجال في قارب: وتُعدُّ من روائع الأدب العالميّ الساخر، نُشرت عام ١٨٨٩م.

أرض المرحلة: صدر عام ١٨٨٩، ويتحدث عن العادات الغريبة لسكانها.

كتاب أفكار تافهة لرجل كسول: عام ١٨٨٩م، ويضمُّ سلسلةً من المقالات التي نشرت بمجلة هوم شايمز.

رواية المطحنة الكسولة: ١٨٩١م.

رواية المدينة الفاضلة الجديدة: ١٨٩١م.

الأعشاب: قصة في سبعة فصول، صدرت عام ١٨٩٢م.

رواية الشريك الراقص: ١٨٩٣م.

ثلاثة رجال على البوميل: رواية ساخرة، نُشرت عام ١٩٠٠م، وتُعرف أيضًا باسم ثلاثة رجال على عجلات.

ملاحظات هنري: ١٩٠١م.

بول كليفر: ١٩٠٢م.

حديث طاولة الشاي: ١٩٠٣م.

مسرحية العودة من الطابق الثالث: ١٩٠٧م.

نكتة الفيلسوف: ١٩٠٩م.

كل الطرق تُؤدّي إلى الجلجثة: ١٩١٩م.

حياتي وأوقاتي: سيرة ذاتية كتبها جيروم عن نفسه عام ١٩٢٦م.

الفهرس

شمس للنشر والإعلام



شمس للنشر والإعلام

ت فاكس: ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net